المقدمة*

التقليد الإسلامي وخطاب حقوق الإنسان

د. مصطفى سيريتش: مفتي البوسنة السابق

لا يمكننا فهم حقوق الإنسان من دون فهم التقليد. ولا يمكننا فهم التقليد من دون الاعتراف بحقوق الإنسان كعنصر أساسي في الحضارة المُعاشة. يشير ماثيو ميلكو في كتابه "طبيعة الحضارات" (The Nature of Civilizations) إلى أن الإسلام هو أحد الحضارات الخمس الحية إلى جانب الحضارات الصينية واليابانية والهندية والغربية.

ولا نملك الوقت أو المساحة هنا لنتناول المعنى الجوهري للتقليد الإسلامي بإسهاب، ولكن نرى أنه من المناسب أن نقول إن القرآن الكريم أدان التقليد الأعمى للماضي باعتباره ضد الروح الحرة والعقل السليم:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وإِلَى الرسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ".[1]

"وَكَذلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبلِكَ فِي قَرْيَةٍ من نذيرٍ إلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إنا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمةٍ وإنا عَلَى ءَاثَرِهِم مقْتَدُونَ* قَلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مما وَجَدتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمصلَعم قَالُواْ إنا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَفِرُونَ* فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْصلعم فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذبِينَ".[2]

أجد ملاحظات المنظّرة السياسية حنا آرندت حول التقليد مفيدةً جدًا، إذ تقول "إن خسارة التقليد التي لا يمكن إنكارها في العالم لا تعني على الإطلاق خسارة الماضي لأن التقليد والماضي أمرين مختلفين، كما قد يحملُنا المؤمنون بالتقليد من جهة والمؤمنون في طور التقدم من جهة أخرى على الاعتقاد..."[3] وتُضيف آرندت "هناك ماضٍ مختلف عن ذلك الذي ينقله التقليد. فالتقليد هو خيط يمر في الماضي ويربط أحداثًا مختارة، وعندما يتم قطع هذا الخيط عَرَضًا، يتم إساءة تطبيق مبدأ نقل النتائج من الأسباب في عالم السياسة غير الطبيعي".[4]

وأن أؤمن بشدة أن مشروع الإسلام – كإنجاز نهائي للرحمة الإلهية على البشرية بناءً على التقاليد الإبراهيمية في مطلع القرن السابع ميلادي – كان الإصلاح الأكثر جذرية للفكر الديني في تاريخ الأديان.

وألغى الإسلام الإيمان غير الطوعي من خلال الإعلان أنه لا يجوز أن يكون هناك إكراه في الدين. وألغى التمييز العنصري عبر الإعلان أنه لا يجوز أن يكون هناك تفوق شخص عربي على آخر غير عربي، أو شخص غير عربي على آخر عربي، أو شخص أسود على آخر أبيض، أو شخص أبيض على آخر أسود أكان رجلًا أو امرأةً إلا بحسن السلوك. كما ألغى الإسلام مؤسسة الكهنوت بسبب استخدامها من قبل الإنسان كوسيلة للتلاعب بالإيمان، فقال إنه لا يجوز أن يكون هناك وساطة في الإسلام بين اللّه والإنسان. وتخلى الإسلام عن قتل الأهل لأولادهم وعن قتل الرضيعات من خلال الإعلان أنه لا يجوز قتل ابنة رضيعة بريئة. كما تخلى عن أي فكرة تتعلق بالذنب الموروث من الخطيئة، عبر التصريح بأنه لا يجوز أن يكون هناك أي شخص مسؤول عن خطيئة الآخرين باستثناء خطيئته الخاصة، لأن كل شخص يولد من دون خطيئة.

وبعد تجربتي مع الإبادة الجماعية ضد شعبي المسلم في البوسنة التي عشتها وشاهدتها، أنا مقتنع بأن مفهوم الأشخاص المحميين في الشريعة الإسلامية (أهل الذمة) – وبشكل خاص في سياقه التاريخي قبل "الميثاق العظيم" (الماجنا كارتا 1215) و"وثيقة الحقوق الإنجليزية" (1689) و"الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن" (1789) والدستور الأمريكي ووثيقة الحقوق هنا (1791) – كان فكرةً جديرةً بالثناء في زمنها وأنقذت أرواحًا بشريةً كثيرة.

وناقضتُ الأسقف الأنجليكاني المعروف نذير علي في إعلانٍ في مؤتمر عُقِدَ في ذلك الوقت، وأكرر التأكيد عينه هنا: أتمنى أن يكون لدى غير المسلمين في منطقة البلقان مفهوم "الأشخاص المحميين" في التقاليد الخاصة بهم، وذلك من أجل احترام حقوق المسلمين، وعلى وجه التحديد حقوقهم في الحياة والإيمان والحرية والملكية والكرامة. وأتمنى أن يكون لدى هؤلاء الناس مفهوم الأشخاص المحميين، لأتمكن على الأقل أن أطلب تطبيقه على نفسي، حتى أتأكد من أن الإبادة الجماعية التي لحِقَتْ بشعبي لن تتكرر أبدًا.

* تنويه: نُشِر النص الأصلي للمقال باللغة الإنجليزية، وهي النسخة المعتمدة. وقد تمت الترجمة بغرض نشر النتائج على نطاق أوسع. يمكن الاطلاع على النسخة الإنجليزية للتقرير عبر هذا الرابط: https://www.atlanticcouncil.org/publications/reports/the-islamic-tradition-and-the-human-rights-discourse

[1] القرآن الكريم، سورة المائدة، آية: 104.

[2] القرآن الكريم، سورة الزخرف، آية: 23-25.

[3] Hannah Arendt, *Between Past and Future*, (New York: Penguin, 2006), 93.

[4] Arendt, *Between Past and Future*, xii.

ولا أرى أنه من الضروري التعليق بإسهاب على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكن يجب أن أقول إن جوهره واردٌ في القيم الخمس الضرورية لحياة الإنسان التي يجب حمايتها ودعمها دائمًا، كما ينص عليها عالميًا العلماء المسلمون في نظرياتهم حول الشريعة الإسلامية. ولكنني أود أن أعلّق على المحاولات المختلفة التي قام بها المسلمون حتى الآن لصياغة وثيقة الإعلان الإسلامي العالمي لحقوق الإنسان الخاصة بهم عام 1981، وإعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام عام 1990. ولا أعتقد أنه كان من الضروري أن تصدر هذه الوثائق، إذ إن وجهة نظري هي أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان متوافق أصلًا إلى حد كبير مع جوهر مقاصد الشريعة، وهي أسمى أهداف الفهم الإنساني لشريعة اللّه في الإسلام.

ولكنني أتساءل لماذا صدرت هذه الوثائق، وأنا مقتنع بأن انعدام الأمن الجماعي دفعنا كمسلمين إلى هذه المرحلة. فمن جهة، نحن واضحون في إظهار إحساسنا بالاكتفاء الذاتي – لأننا نعرف أننا ورثة الوجود المستمر للروح الحرة الإلهية في التاريخ التي تم الكشف عنها في الكلمة الأخيرة للّه في القرآن الكريم. وبذلك نكون قد تذوقنا تاريخيًا ذلك الإحساس بالاكتفاء الذاتي، لكننا فعلنا ذلك من خلال تثقيف عقولنا وانخراطنا في الاكتشافات الفكرية التي وُضعت لصالح البشرية بأكملها. ونحن نعتمد على اللّه وحده. وبالنسبة للقسم الأكبر من تاريخنا، فإن سلطتنا الدنيوية على هذه الأرض قد تجد الكثير من الأمثلة المؤثرة وذات المغزى.

ولكن عندما فقدنا هذه السلطة الدنيوية – ولا شك الآن في أن السلطة السياسية التي يتمتع بها المسلمون عالميًا هي سلطة ليست ذا وزن مقارنةً بالقرون الماضية – فشلنا في تقييم شؤوننا. فمن ناحية، نحلم أننا مكتفين ذاتيًا، ولكن من ناحية أخرى يمكننا أن نرى أننا لا نملك تأثيرًا قويًا في مشاركتنا في القضايا العالمية، مثل خطاب حقوق الإنسان الذي ربما كان لدينا منذ عدة قرون. وبالتالي، نكون في الكثير من الأحيان في موقفٍ دفاعي في ما أسمّيه متلازمة انعدام الأمن الثقافي المفروضة ذاتيًا والتي تتجلى، في أحسن الأحوال، من خلال الحديث الإسلامي عن الوسطية (أو الاعتدال) كمقدمة للاعتدال الإسلامي مقابل التطرف الإسلامي أو حتى الإرهاب.

ويقول القرآن الكريم أن اللّه سبحانه تعالى جعل الطائفة المسلمة أمّةً وَسَطًا (أي الأمة المُعتدلة)، ولكن هذا لا يعني أنه ينبغي أن نكون معتدلين ببساطة، الأمر الذي يبدو لي فاترًا أو غير مبتكر. إن فكرة الوسط هي أكثر بكثير من ذلك. فبرأيي، يعني ذلك أنه يجب على المسلمين أن يكونوا في وسط البشرية جمعاء وجوهر الحضارة، من أجل ربط جميع أجزاء الوجود الإنساني في مجموعة متكاملة لتستخدمها البشرية كلها وتستفيد منها. وهذا ما كان عليه بيت الحكمة في بغداد ومدينة قرطبة عليه في أحد الأيام (في الوسط)، حيث كان يتم جمع كل المعرفة الجيدة ودمجها ونشرها في جميع أنحاء العالم من قِبل جميع الناس بصرف النظر عن إيمانهم وعِرقهم وجنسيتهم.

وبالتالي، يجب أن تكون الوسطية حركةً إسلاميةً تقرّب بين الشعوب مع احترام اختلافاتهم. ولا ينبغي أن تشكل الوسطية إغراءً يقودنا إلى الإدماج، ولا رفضًا يقودنا إلى الانعزال. بل يجب أن تشكّل قوةً تكامليةً تقودنا إلى ما كنا معروفين به. ولقد عُرِفنا بأننا أمة محترمة وجيدة ومحبوبة ومفيدة وجديرة بالثقة وصديقة للإنسانية، تمامًا كما كان أسلافنا الطيبون في زمنهم، زمن الاكتفاء الذاتي والأمن الثقافي.

كما ينبغي علينا كمسلمين العمل بجد لتحقيق الاكتفاء الذاتي الفعلي، والتخلي عن أي شعور بعدم الأمان على أساس الوجود الحقيقي للأمن الفعلي – وتحديد مكاننا الصحيح في العالم، حيث نكون أبطال الحقوق الأساسية لجميع الناس والشعوب. فهذا حقنا وواجبنا.